عبادة الله والنِعمة

بعد أن أنعَمَ عَلَيَّ الحُبُّ الإلهيُّ باحتراقِ قلبي بهذا الحُبِّ السماويِّ الطاهر الصافي، وذلك حوالي مُنتَصَفِ شهر كانون الأوَّل 2013، أنعَمَ علَيَّ بالتعبير عنه في لحظاتِ التهابِه بقصيدةٍ بعناون: "نشيدُ الحُبِّ السامي"، كتَبتُ معظمها صباح يوم الخميس بتاريخ 30 كانون الثاني 2014 واكتملَت قبل القدَّاس المسائي في اليوم عينه. والحافزُ لكتابتها كان تفجُّرُ هذا الحُبِّ الإلهيِّ بشكلٍ غير مسبوقٍ مُترافقًا مع ألَمٍ سكبهُ المسيح في قلبي محبَّةً بالنَفسِ، "الطفلة الصغيرة"، وشراكةً بالآلام الخلاصيَّة.

خلال هذه الفترةِ كنتُ أتذكَّرُ دائمًا كلامَ الرَبِّ يسوع المسيحِ لتلاميذه عن العناية الإلهيَّة، وعدم الاهتمام باللباس والمأكَل والمَشرَب، بل **طَلَب "ملكوتَ اللهِ، وهذا كلُّهُ يُزادُ"** (لو12: 22–31) لنا. من ثمَّ، فتحتُ يومًا الإنجيل وقرأتُ أيضًا الآية 32 الَّتي تقول: "**لا تَخَفْ، أيُّها القطيعُ الصغيرُ، فقد حَسُنَ لدى أبيكُم أن يُعطيَكُم الملكوت**". وتابعتُ قراءة الآية 34، وهي تقول: "**حيثُ يكونُ كنزُكُم، هُناكَ يكونُ أيضًا قلبُكُم**". تأمَّلتُ بهذا الكلامِ الإلهيِّ المُوَجَّه لكلِّ نفسٍ بشريَّة، فرسمَ في ذاكرتي وبصيرتي ومُخيِّلَتي وعقلي وقلبي لقاءً حميمًا بين نفسي وحبيبها المسيح. وهكذا، وجدَتْ نفسي ذاتها طفلةً صغيرةً أمامَ عريسها يسوع المسيح، مِمَّا حفَّزني ككاهنٍ للمسيح يسوع على اعتبارِ النُفوسِ المصبوغة بالحُبِّ الإلهيِّ ومَوكولَة إلَيَّ من الحبيب يسوع لخدمتها بأنَّها "طفلتي الصغيرة". وهذا ذكَّرَ نفسي بمُناداة العذراء مريم أبناءها في الحركة الكهنوتيَّة المريميَّة: "يا أطفالي الصغار". وهنا بدأ الحوار والتواصُل الحميميُّ بين العريس يسوع والعروس نفسي. ودائمًا تأتي المُبادرة من الحُبِّ الإلهيِّ داعيًا حبيبتَه النفسَ البشريَّة لمُلاقاته، وبالأخصِّ إذا كانت قد ارتفعَت إلى درجاتٍ ساميةٍ في عيش الفضائل الإلهيَّة والمسيحيَّة، لتخلِّيها عن مَلِكاتِ ورغبات هذا الدهر الفاني. طبعًا نفسي ككلِّ النفوسِ العاشقة الله، هي "طفلةٌ صغيرةٌ" أمام عظمة الله الخالِق ومُحِبِّ البشر، وكنزها أن تبقى في حظيرة المسيح الخلاصيَّة حيث تعبدُه وتُمجِّدُه بلا خوفٍ إلى الأبد. فالمسيح، خليل النفس العاشقة، هو الراعي الصالِح والإله الحنون والقدير على حماية قطيعه من الذئاب الخاطفة، وهي سفيرتُه الأمينة بين الخراف الصغار تُبَشِّرُ بحُبِّه الإلهيِّ كلَّ النفوس الناظرة إلى المحبَّة. أخيرًا، بدأ الكلام يخُطُّ أحرفَهُ على ورقةٍ بيضاء، يكتُبُ ما يشاؤُه العريس المسيح، فكانت هذه الدَغدَغَة بين القلب الإلهيِّ الأقدَس وقلب نفسي العاشقة المسيح، فقال الحبيب:

أيا طفلتي، يا صغيره! **أيا وَعْدَ حُبٍّ، مُنيره!** (يُنادي المسيحُ حبيبته، أي النفس البشريَّة، "طفلتي الصغيرة"، لأنَّها تتمتَّعُ بالبراءة والطهارة والنقاوة والصفاء، مُسلِّمةً ذاتها بشكلٍ واثقٍ وكاملٍ ومُطمئنٍّ بأنَّ حبيبها سيَغمُرُها بحُبِّه وسلامه وأمانه وفرحه، ككلِّ طفلٍ يثِقُ ويستسلمُ كلِّيًّا لوالديه. وهي تَعلَمُ عِلمَ اليَقين بأنَّها لن تتعرَّض تحت حمايته المُطلَقة لأيَّةِ أذيَّةٍ أو ضرر شرِّير ومُخادِع. ويَصِفُ الحبيبُ طفلَتَه بالمُنيرة لأنَّها وَفَتْ بوعدِها في حُبِّه ولم تَخذُلْه ولم تُخَيِّب أمَلَه، بل كانت على قدْرِ الحُبِّ الإلهيِّ مُطيعةً له كمريم العذراء ويُوسف البتول، تُضيءُ حُبًّا سماويًّا نقيًّا صافيًا رقيقًا رهيفًا بديعًا وديعًا.

على قلبي تَملُكينَ **أبدًا، بشخصِ الأميره.** (لذلك، أشرَقَتِ الحبيبةُ من نور حبيبها الإلهيِّ على قلبِهِ القُدُّوس مصدرَ النورِ والحُبِّ، ومَلَكَتْ مِمَّا هو لحبيبها على قلب حبيبِها للأبد، لأنَّها هي أميرَتُهُ المُفضَّلَة والأمينة والمُطيعة للحُبِّ الطاهر والخيرِ والسلام وليس لعكسه. فإذا كان هو الأميرُ فهي الأميرة، وإذا كان هو النورُ فهي المُنيرة، لأنَّها لصفائها وعذوبتها تَعكُسُ نورَ حبيبها على كلِّ نفسٍ تختارُ الاستنارة من نور الإله الحبيب العريس).

لأجل انتصارِ المحبَّه، **أراكِ الهوى في الحظيره.** (ولكي ينتصِرَ الحبيبُ الإله بحُبِّه الإلهيِّ على الأعداء الثلاثة، الخطيئة والموت والشيطان، يُريدُ حُبًّا سماويًا مُعاشًا في حظيرتِه، أي في المكان الَّذي يحمي فيه خِرافَه – عرائسه – من كلِّ شرٍّ وعداوةٍ وأذيَّة وخوفٍ وهلاك. فكلُّ نفسٍ تَعيشُ الحُبَّ الإلهيَّ في حياتها تكونُ محميَّةً بهذا الحُبِّ الإلهيِّ السامي، وتكونُ قد اكتنزَتْ لها إرثَ الملكوت السماويِّ، "حيثُ لا يَقتَرِبُ سارِقٌ (مُخادِع)، ولا يُفسِدُ سوسٌ (روحٌ شرِّير)" (لو12: 33)، لأنَّ خلايا قلبِ الحبيبةِ تمتلئ من عسل الحُبِّ الإلهيِّ الصافي. وهنا يرى الحبيبُ أنَّ حبيبتَهُ هي بذاتِها هذا الهوى، أي الحُبَّ المُضَحِّي الَّذي يبذل ذاتَه في سبيل أحبَّائه والخير والسلام، كما فعلَ الحبيبُ نفسُه على الصليبِ من أجل حبيبتِه وكلِّ التائبين أحبَّائِه. فأضحَتِ الحبيبةُ مُتَّحِدةً بالحبيب، ولذلك استطاعَتْ أن تَملأَ حظيرةَ حبيبِها من حُبِّه الخلاصيِّ زارعةً فيها باسمِه القُدُّوس الطمأنينة والسلام والفرح).

فلا مُستحيلٌ لَدَيَّ، **ولا بُخلٌ يا نظيره.** (وبما أنَّ الحبيبةَ استحَقَّتْ تمثيلَ الحبيبِ بجدارة، فلم يَعُدْ لديه شيءٌ خَيِّرٌ مُستحيلٌ تحقيقه، فهو القادرُ على كلِّ شيءٍ خلاصيٍّ، بشرطِ استجابة النفس البشريَّة لندائه، كما استجابَتْ مريم البتول الفائقة القداسة وأضحَت سبب خلاصٍ للبشريَّة. كذلك، لم يَعُدْ باستطاعَةِ الحبيبِ أن يَبخُلَ بأيِّ شيءٍ تطلُبُه الحبيبةُ لأنَّها لا تطلُبُ إلاَّ خلاص النفوس. وهذا يُذكِّرُنا بأنَّهُ لم يستَطِعْ رفضَ طلبِ والدَتِه مريم

العذراءِ في عرسِ قانا الجليل، فحوَّلَ الماء إلى خمرٍ ثمَّ الخمر إلى دمِه الغفورِ المُعتَّقِ عِتقَ الدهور كحُبِّه الإلهيِّ السرمديِّ، وكلُّ ذلك لأنَّ الحبيبةَ تَحَوَّلَت نظيرتَهُ، أي في طليعةِ الأحبَّاءِ، لا بل أفضلَهم وأمثلَهم وأكثرَ طاعةٍ لتعليمِه ولوصاياه، إذ أضحَتْ تُعَلِّمُ الآخَرين حُبَّ اللهِ بفرحٍ وشجاعةٍ وثبات).

بيومٍ عظيمٍ صُلِبْتُ، ليحيا رجاءُ النصيره. (ويُتابع العريس إرساء روح السلام والحُبِّ في قلب الحبيبة، فيُعبِّرُ عن تقدمة ذاتِه ذبيحةً وضحيَّةً ليتحَقَّق رجاؤها بالاتِّحاد به وبحُبِّه الإلهيِّ أبدَ الدهور. فطريق الصليب هو طريق الحُبِّ الإلهيِّ الصادق الخلاصيّ، هو طريق التضحية من أجل خلاص الأحبَّاء ودخولهم ملكوت الله، لأنَّه على الصليب تمَّ سرُّ الفداء العظيم، ووُلِدَت كنيسةُ المسيح المُقدَّسة، وانسكَبَتْ رحمةُ الله على التائبين والعاشقين الله بانسكاب الدَمِ والماءِ من قلب المسيح الفادي كنبع رحمةٍ تغتسلُ فيه النفوس والأجساد وتنالُ الشِفاءَ وتتحرَّرُ من كلِّ خوفٍ ومضَرَّةٍ وشرٍّ وشعوذَةٍ وهلاك. وبذلك، تُصبِحُ الحبيبةُ نصيرةَ الحبيبِ بشكلٍ ثابتٍ لا يتغيَّر، تُعلِنُ إيمانَها به وحُبَّه وولاءها له ورجاءها بانتصارِه واتِّحادِها به).

ليغدو انتصاري إلهًا، بهيًّا برَغْدِ السفيره. (وهكذا، ينبثقُ انتصارُ المسيح كإلهٍ انتصارًا على الخطيئةِ والموت المُهلِك والشيطان، انتصارًا أيضًا على الضعف البشريِّ الَّذي وقع فيه الإنسان منذ سقطة آدم وحوَّاء في شباكِ الحيَّة القديمة. وهذا الانتصارُ للحُبِّ الإلهيِّ انطلاقًا من صليب الفداء، أشرقَ مجدًا وبهاءً سماويًّا، بشكلٍ خاصٍّ لأنَّ الحبَّ قد أخصَبَ في قلبِ الحبيبة (رَغْد) الَّتي أضحَتْ سفيرةَ المسيحِ بلا مُنازِع. عندها طاب العيش (الرَغيد) بين الحبيب والحبيبة، واتَّسع بينهما مذاقُ الحُبِّ الإلهيِّ بلا حدودٍ، لا زمنيَّة ولا مكانيَّة. والحبيبةُ سفيرةُ الحبيبِ بدأتْ تقومُ بعملِها بدقَّةٍ تامَّةٍ وأمانةٍ ثابتةٍ وحُبٍّ طاهرٍ لاتِّحادِها به بشكلٍ كامل، فتحوَّلَتِ السفيرةُ لتكونَ المسيحَ الحبيبَ بذاته بالمُشاركة، وتحوَّلَ المسيحُ ليكونَ سفيرته بذاتها كإلهٍ اتَّخَذَ الكيانَ البشريَّ ليَرفعَهُ إلى الأُلوهة).

أجابَتْ بعُشقٍ: أراكَ، حبيبي، مسيحًا قديرا. (بعد أن أتَمَّ المسيحُ دورَه وأعلَن مشيئتَهُ في خلاص حبيبتِه وسفيرتِه واتِّحادِها به وبحُبِّه الإلهيِّ أبدَ الدهور، تكلَّمَتِ الحبيبةُ مُعلنةً إيمانَها بحبيبِها الَّذي رأتْهُ بعينيها ولمسَتْهُ بيدَيها وسمعَتْهُ بأُذُنيها وتشَقَّقَتْ عبيرَه بأنفِها وتذَوَّقَتْهُ في قلبِها مذاقَ حُبٍّ ملأ خلايا قلبها عسلاً صافيًا طيِّبًا شهيًّا مُنعشًا عذبًا طريًّا، التقَطَهُ من رحيقِ ورودِ حواسها المُطَهَّرة، ورحيق زهور أفكارها المُصفَّاة بأفكار الحبيب. وهي لم تَرَ الحبيبَ الإلهيَّ لولا نقاوة قلبها: "طوبى لأنقياءِ القلوب، لأنَّهم سيُعاينون الله" (مت5: 8). فأعلَنَت إثرَ هذا الكنز السماويِّ الرَفيع أنَّ حبيبها هو المسيحُ القدير، كما أعلَنَت ذلك المرأة السامريَّة إثرَ توبتِها وطلَبَت منه أن تشرَب من ماء الحياة الَّذي يُعطيه هو فلا تعطَش أبدًا بعد أن تتناوَلُه. فالمسيح بقُدرَةِ حُبِّه الإلهيِّ حَوَّلَ النَفسَ البشريَّةَ إليه، إذ وَحَّدَ طبيعتَها البشريَّة بطبيعتِه الإلهيَّة فأضحَتْ هي الحُبُّ الإلهيُّ بالمُشاركة. أي أضحَتْ تُشارِكُهُ في جوهرِ الحُبِّ الإلهيِّ بنعمةٍ منه وليس بقِواها الذاتيَّة، وذلك كما شاركَتْه مريم في سِرِّ الفداءِ وفي القيامة وفي الانتقال معه إلى السماء بالنفس والجسد. ولكن مع فارِقٍ، أنَّ مُشاركةَ مريم هي ذروةُ ما يُمكنُ أن تَصِلَ إليه النَفسُ البشريَّة، ولم ولن يَنعَم به أحدٌ سواها).

رجائي اعتلانُ الحُبِّ قلوبًا، وجمعًا غفيرا. (لذلك، تكوَّنَ لدى الحبيبة الطِفلة الصغيرة وفي عُمقِ قلبها، ولأنَّها أصبَحَتِ الحُبَّ الإلهيَّ بعينِه، رجاءٌ بأن تقبلَ كلُّ القلوب البشريَّةِ أن يكون مَلِكُ الحُبِّ يسوع المسيحَ مَلِكًا عليها. فهي تتشوَّقُ أن يكونَ هذا الخيرُ السامي والحُبُّ الطاهرُ هدفَ كلِّ النُفوسِ البشريَّة لأنَّها تتذوَّقُ طعمَه وتعيشه بامتيازٍ كبيرٍ لن يُنزَع منها، لا بل سوف تعبرُ من خلالِه إلى أبديَّة الاتِّحاد الكامل بالحُبِّ الإلهيِّ).

فأسرِعْ بعونِ الحنان عشيقًا، خليلاً، أميرا. (إثرَ هذه اللحظاتِ الملآى برجاء خلاص النُفوس، تصرخُ الطفلةُ الصغيرةُ سفيرةُ المسيح الحبيب: أسرِعْ! فهي تطلبُ منه وتستغيثُ به أن يتحنَّنَ بعنايتِه الإلهيَّة على كلِّ النُفوسِ، ويتراءى لها حبيبًا يعشقُ خلاصها، وخليلاً يجذُبُها لتتَّحِدَ بحُبِّه السامي الطاهر، وأميرًا يملِكُ للأبدِ عليها وعلى قلبها وحياتها وكيانها. لأنَّ اللهَ المحبَّة لولا عُشقِه للخَلقِ الحسَن ورِفقِه بخَلقِه الأمين وعنايتِه بالنُفوسِ المُحِبَّة لَما كان الله الخالِق الحنون المُحِبَّ البَشَر).

فؤادي يُنادي سماكَ، أنا طفلتُكَ الصغيره. (وتُتابعُ الحبيبةُ صرختَها لحبيبها، إذ تُناديه مُناداة عميقة من عمق الأعماق، صرخةً تَدخُل خِدر السماء، أي عرشَه المُلوكيَّ، كي يُحَقِّقَ رغبَتَها في خلاصِ النفوس، ويعتني بأطفالِه الصغار كعشيقٍ وخليلٍ وأميرٍ يمنحُ الحُبَّ الطاهر والأمان التامَّ والبُنوَّة المُقدَّسة. وهكذا، كان لا بُدَّ منها بأن تُذَكِّرَه بكلامِهِ في الإنجيل المُقدَّس: للآبِ السماويِّ ابتهل يسوع وقال: "أعتَرِفُ لكَ، يا أبتِ، رَبَّ السماءِ والأرض، لأنَّكَ أخفَيتَ هذه الأُمورَ عن الحُكماء والفُهماء، وأظهَرتَها للأطفال!" (مت11: 25). ولتلاميذه قال: "الحَقَّ أقولُ لكم: إنْ لم تعودوا فتصيروا مثلَ الأطفال، لن تدخُلوا ملكوتَ السموات" (مت18: 3). ثمَّ لتلاميذه أيضًا قال: "دَعوا الطفالَ يأتونَ إليَّ ولا تمنعوهم، فإنَّ لمثل هؤلاءِ ملكوتَ السموات" (مت19: 14)). وهكذا، كما بدأ الحبيبُ نداءَهُ لحبيبتِه كي تكونَ "طفلَتَهُ الصغيرة"، وتَغنَّى بحُبِّها ورجائها وأمانتِها...، ها هي تُنهي نداءها القلبيَّ العميقَ مُعلنةً بشكلٍ حاسمٍ وحازمٍ ونهائيٍّ لحبيبها: "أنا طفلَتُكَ الصغيره").

كتبتُها بنعمة الله في منزلي، زوق مصبح

الأربعاء، 19 شباط 2014

الخوري غسَّان رعيدي